الثابت والمتغيّر في حركة التاريخ والتجديد المعرفي لدى محمد إقبال

نور الدين الصغير*

الملخص

التاريخ تقلّب بين مراتب الدّوام والتغيّر، وسعي أبدي نحو استحضار حقيقة الماضي وتصوّر الواقع وإدراكه في سير المجتمعات البشرية وصراعها من أجل بلوغ الأمثل. أما إنتاج المعرفة؛ فهو تماهٍ بين تجديد السّائد ونقده والالتزام بثوابت العقل الإيمانية من توحيد وعقيدة وروح، واستحضارها في عالم الممارسة الفكرية والوجدانية. وللمفكر الفيلسوف محمد إقبال صياغة مقاربة نموذجية لهذه الجدلية القائمة بين سيرورة التاريخ وحركة التجديد المعرفي الذي نادى به لإصلاح الخطاب الفكري الإسلامي، بما قرّره في كتابه تجديد التفكير الديني في الإسلام.

الكلمات المفتاحية: حركة التاريخ، الثابت والمتغيّر، التواصل والانقطاع، التجديد

Fixed and Variable in History Movement and Epistemological Renewal in the thought of Muhammad Iqbal

Abstract

History is a fluctuation between stability, change, and an eternal pursuit to evoke reality of the past, and perceive the present of human societies and their struggle to achieve the optimal.

The production of knowledge; is identification between the renewal and criticism of what prevails and commitment to the fundamentals of the faith mindedness such as *tawhid* (monotheism), doctrine and spirit, and the evocation of the world of intellectual and emotional practice.

Philosopher and thinker Muhammad Iqbal has a typical approach to this dialectical process of history and the change of epistemological renewal that he called for to rectify Islamic intellectual discourse written in his book *"Tajdeed at-Tafkeer ad-Deini fi l islam*" "Reconstruction of Religious thought in Islam".

Keywords: History dynamism, fixed and variable, Continuity and discontinuity, renewal.

---

* دكتوراه في التاريخ الوسيط من جامعة السّوربون بفرنسا سنة ١٩٨٥م، ودكتوراه في التاريخ المقارن من الجامعة التونسية- جامعة الزيتونة، ١٩٩٥م، رئيس قسم التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة الشارقة- الإمارات العربية المتحدة. البريد الإلكتروني: nalsagheer@gmail.com

تم تسلم البحث بتاريخ ٢٠١٥/٣/١٠م، وقُبل للنشر بتاريخ ٢٠١٥/١١/١٥م.

مقدمة:

في كتاب الفيلسوف المصلح محمد إقبال: (تجديد التفكير الديني في الإسلام) لحظات نظر وتحقيق واستقراء في مكوّنات حركة التاريخ وعملية الإصلاح وتهذيب الأفكار، هذه الجدلية ذات النسق التكاملي تسعى إلى الارتقاء الفكري والمعرفي لمكوّنات المنظومة الإصلاحية. والمستقرئ نصوص الفيلسوف محمد إقبال والمتعامل مع مكوّنات خطابه الموجّه للمتلقي العربي في خضمّ حركة الإصلاح التي حمله فيه التوق المعرفي ليرتقي بالمسلم في سلّم الإبداع، فإنّه يقف على هيكلة متناسقة تقوم على المستلزمات الآتية ضمن قراءة تلازمية ومنهجية متكاملة، تأخذ في الاعتبار التواصل المعرفي بين مختلف العناصر، وتنطلق في حركة بناء تصاعدية تؤسّس برسم واقع حقيقة الحركة التاريخية والمعرفية، وأصول التجديد الفكري لتحقيق المواءمة بين الثابت والمتغيّر في أصول المعارف، وللوصول إلى صيغ تجديد الخطاب المعرفي وضروراته، ومناقشة حركة المعرفة وصيغ تجديدها في النسق التاريخي للأمة، وفلسفة تحصيلها وتطويرها بين التواصل والانقطاع باعتماد الاجتهاد أصلاً من أصول النماء والعطاء في العملية الإبداعية. وترتقي هذه المحاولة لتحقّق معادلة مكوّنات نظرية المعرفة في الفكر الفلسفي كما يريدها محمد إقبال، مع رسم قواعد بنائها الإيمانية التي تؤاخي بين الفلسفة والدين والمادة والرّوح، ليصل في النهاية إلى نقد النظرية الإيمانية للفلاسفة الغربيين الذين رفعوا من شأن العقل على حساب الرّوح في تأسيس معارفهم وفي قراءتهم للإسلام، ومنه ينتهي إلى صياغة أسس نظرية الإدراك المعرفي والنهوض بالخطاب الفكري في حركة الثقافة الإسلامية مع إملاءات حتمية الارتقاء.

وبتتبّع النسق التحليلي بثنائية التفكيك والتركيب ستكون هذه الأركان مكوّناً أساسياً لفهم الخلفية الفكرية، ودعامة منهجية لنظرية الفيلسوف إقبال في صياغة جدليته التكاملية في البناء المنهجي لخطاب التجديد، والإدراك المعرفي الحداثي الذي سيتمكّن بواسطته الفكر الإسلامي من تحقيق ذاته أمام الآخر، واستعادة عبق تاريخ الإبداع الحضاري الذي رفع من شأن الحضارة الإسلامية، وجعل منها منهلاً للحضارة الإنسانية.

في رحاب الفكر الإقبالي:

يعدّ محمد إقبال رائداً من رواد التجديد في الفكر الإسلامي المعاصر من خلال إنتاجه الفكري وتأملاته الفلسفية التي سعى عن طريقها إلى تحقيق انقلاب معرفي[١] في المنظومة الإسلامية. لقد سعى إلى تغيير آليات الفكر وبناء نسق منهجي جديد يساعد المسلم المعاصر على التآلف مع مستجدات العصر ومكوّناته الفكرية، المنهجية منها والمقاصدية، حتى يصبح قادراً على رفع التحديات التي فرضها الغرب على الأمة الإسلامية منذ أن تراجع عطاؤها الحضاري لتنطلق في خطّ تنازلي تاركة الريادة لأوروبا التي لفتت انتباه المسلمين بإبداعاتها حتى هاموا بها حبّاً وشغفاً وأعجبوا بمفاتنها الحضارية، كما استوقفت طلائع الإصلاح في العالم العربي نموذجها وكبّلت مساحة الفهم لديهم بحتمية الاقتداء بالآخر أو الضياع والتخلّف. ولم يخفِ إقبال هذه الأزمة؛ إذ وصفها قائلاً: "فلا عجب إذن أن نجد شباب المسلمين في آسيا وفي إفريقية يتطلّبون توجيهاً جديداً بعقيدتهم، ولهذا لا بدّ أن يصاحب يقظة الإسلام تمحيص بروح مستقلّة لنتائج الفكر الأوروبي، وكشف عن المدى الذي تستطيع به النتائج التي وصلت إليها أوروبا أن تعيننا في إعادة النظر في التفكير الديني في الإسلام، وعلى بنائه من جديد إذا لزم الأمر."[٢]

أولاً: متطلّبات الذات المعرفية ونقد الآخر

إنّ المتتبّع لكتابات محمد إقبال الفكرية والفلسفية[٣] خاصة كتابه "تجديد التفكير الديني في الإسلام" الذي أسّس فيه صاحبه لكلّ مقوّمات التجديد المعرفي في الإسلام وإعادة بناء الفكر الإسلامي وفق متطلّبات العصر وما تمليه الحضارة الغربية من

[1] Sharif M. M. "About Iqbal and His Thought". Institute of Islamic Culture, Lahore, 2nd Ed.1976.

[٢] إقبال، محمد. **تجديد التفكير الديني في الإسلام**، الإسكندرية: دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ٢٠٠٠م، ص١٦.

[٣] نذكر منها: رسالة المشرق- الفتوحات الحجازية- أسرار المعرفة- الذات وأسرار فناء الذات... .

تحديات، يدرك أنّ صاحبه حرص على صياغة الأسس المنهجية وبناء الكتاب على تفكيك المنظومة المعرفية السائدة في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، التي اتسمت بالهيمنة المطلقة للفلسفة الغربية، وطلائع الغزو الفكري الغربي الذي شكّل منعرجاً خطيراً في ذوبان الثقافة الإسلامية، من حيث الانحدار الفكري والانحلال الأخلاقي.

بدأ إقبال بنقد هذه المنظومة وتفكيك مكوّناتها مستعرضاً حسنها من سيّئها، وشارحاً ما استعصى منها على الأفهام، ومقرّباً ما بينها وبين الشريعة الإسلامية من توافق وتقاطعات، فخصّ النخب من الفلاسفة بالشرح والتحليل والنقد والتعليل من مختلف الاتجاهات الفكرية:

- هنري برجسون: مستعرضاً مواقفه من مفهوم البداهة وتحليل آليات النمط التصاعدي في الاستدلال.[٤]
- الفلسفة اليونانية: سقراط في نظرية المعرفة وقيمة البناء الفلسفي.[٥]
- أفلاطون: في قضايا الجوهر والعرض.[٦]
- في نقد من تبنى آليات الفلسفة اليونانية من العلماء المسلمين، مثل: أبو حامد الغزالي من خلال نظريته في بناء المعرفة وفي قضايا خطر الشكّ على الدين؛[٧] وابن رشد في مقولة خلود العقل الفعّال، وهو الذي حاز رضا المفكرين الغربيين في أواخر عصر النهضة ومطلع التاريخ الحديث في كل من فرنسا وإيطاليا، إلى جانب بداية تفاعل الكنيسة مع أصول التآلف بين الفلسفة اليونانية والفلسفة الإسلامية.[٨]
- إيمانويل كانط: في استدلاله على قصور العقل الإنساني، والذي عدّه إقبال من أصحاب الفضل على الفكر الأوربي بصفة عامة والفكر الألماني بصفة خاصة.[٩]

[٤] إقبال، **تجديد التفكير الديني في الإسلام**، مرجع سابق، ص٩، ٤٨.
[٥] المرجع السابق، ص١٠.
[٦] المرجع السابق، ص١١.
[٧] المرجع السابق، ص١١.
[٨] المرجع السابق، ص١١.
[٩] المرجع السابق، ص١٢.

- رينيه ديكارت: في شرحه لفكرة كمال الكائن في عقولنا.[١٠]
- جورج بركلي: في القول بأنّ الموضوعات المباشرة للفكر هي المعاني دون الأشياء.[١١]
- روسل: في القول بعلاقة النسبية بمعنى الجوهر، والتي أحدثت زعزعة في المنظومة الفلسفية وفي الجدل المعرفي الأوروبي.[١٢]
- نيوتن: في القول بكون الفضاء خلاء مطلقاً تقوم فيه الأشياء.[١٣]
- رينان: في سكون الحركة وتقلّبها في الزمان والمكان.[١٤]
- وايتهيد: في بناء العالم وعلاقته بالحوادث وحركة الزمان والمكان.[١٥]

هذه العملية التفكيكية للمنظومة المعرفية الفلسفية والعلمية للغرب، مقترنة بالعملية النقدية تلك التي سعى من خلالها محمد إقبال إلى اكتشاف أسرار النظريات الفكرية الغربية، لينتهي إلى إعادة بنائها وصياغتها وفق متطلّبات الشرع الإسلامي وما تقتضيه جدلية التطوّر في الفكر المعاصر. هذه العملية أثبتت قدرة إقبال ونضجه في الإلمام بالمنظومة المعرفية التي سادت العصر، حيث انتهى إلى الغوص في أعماقها دون أن يتيه في منعرجاتها.

لقد كان مستوعباً للفكر الغربي دراسة وتدريساً على أيدي أمهر مفكريه،[١٦] ووفياً لتراثه الإسلامي الذي تلقاه من بيئته الأولى التي نشأ فيها وترعرع، ومن ثمّ كان مستحضراً لمنظومة متكاملة تماهى فيها الفكر الغربي والتراث العربي الإسلامي، ليسخّر آلياتها في حقيقة البناء والتجديد، بما يمكّن المسلم المعاصر من الأخذ بأسباب التطوّر والاستجابة لتحدّيات التيارات الفكرية الغازية والهدّامة التي ساندتها الحركات الاستعمارية، وساعدتها في تهميش المتلقّي المسلم وذوبان هويته الذاتية والمعرفية.

---

[١٠] المرجع السابق، ص٤١.
[١١] المرجع السابق، ص٤٤، ٤٦.
[١٢] المرجع السابق، ص٤٦، ٤٨.
[١٣] المرجع السابق، ص٤٦.
[١٤] المرجع السابق، ص٤٧.
[١٥] المرجع السابق، ص٥٩.
[١٦] توماس أرنولد- هنري برجسون.

ثانياً: معالم الهوية المعرفية

انطلاقاً من اقتناعه بحتمية التغيير، وعدّ هذه القيمة من أبرز عناصر التأسيس الحضاري في الفكر الإسلامي، انطلق إقبال في صياغة الأطر النظرية المبنية على جدلية الثابت والمتغيّر في تحقيق المعادلة المفقودة التي مثّلتها القطيعة الإبستمولوجية منذ مطلع التاريخ الغربي الحديث.[١٧]

إنّ المنظومة الإصلاحية التي سعى إقبال إلى تحقيقها استمدّت مقوّماتها من مفاهيم الثبات والتغيير التي اختزل بها إقبال رؤيته في إعادة بناء الأسس الحضارية التي بها ستتحقّق حضارة الإسلام الحديثة، ولكن ليست بمعزل عمّا سلكه روّاد الإصلاح السّابقون من أمثال: الطهطاوي وخير الدين التونسي وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده والكواكبي...، الذين استمدّوا أفكارهم من النموذج الغربي، محاولين محاكاته بتصرف، ساعين إلى التوفيق بين المفاهيم الحضارية والدينية الإسلامية والغربية، إلّا أن صعوبة الإفلات من إغراءات النموذج جعلتهم يسقطون في التلفيق نتيجة غياب الخبرة الضرورية في هذا المجال، وعدم الغوص في أعماق الحضارة الغربية، فكان استيعاب النموذج مشوّهاً لا ينتمي لا إلى هذا ولا إلى ذاك. أمّا إقبال فقد أدرك الأبعاد الحقيقية لإشكالية التآلف والتضاد بين الحضارتين، فانبرى يبحث في التراث الإسلامي عن منطلقات البناء وإعادة التأسيس. فبعد النقد والغربلة وتفكيك المكوّنات الأساسية وإعادة تركيبها، اهتدى إقبال إلى وضع قاعدة بناء قوية أسّس لها بمفهوم الحركة بما فيها من ثبات وتغيير داخل المنظومة الثقافية الإسلامية. فعن طريق هذه الحركة ذات البعدين وجدلها التصاعدي، بيّن إقبال أنّ في نسيانها وتجاوزها كانت محنة الغرب في عصوره الوسطى، كما كان غياب الحضارة الإسلامية منذ القرن الخامس عشر، عندما نفى المسلمون التغيير مسلّمين بالثبات الميتافيزيقي وعجز الإرادة عن مسايرة الواقع.[١٨]

---

[17] Maruf, Muhammed. *Iqbal et sa pensée religieuse occidentale contemporaine*, ISBN 0 969 416 051.

[18] M.S. Raschid. *Iqbal's concept of God*, London: Kegan Paul International, 1981.

لقد أتى على الأمة ردح من الزمن غابت عنهم فيه قيمة الإبداع وإنتاج المعرفة، و لم تعد لديهم القدرة على تجلية أبعاد التقدّم والتطوّر،[١٩] فكأنّ الزمن لم يعد هو الزمن الإسلامي، وكأن التاريخ همّشهم وانشغل عنهم بغيرهم، فاختلطت عليهم مفاهيم الدور الحضاري، و لم تعد لديهم القدرة على تحديد علاقة التاريخ بالحركة، وتاهوا في سؤال: هل التاريخ متحرّك في إطار التشابه، أو أنه متشابه في إطار الحركة؟ فلو لم تكن هناك جدلية قائمة بين الثابت والمتغيّر في جوهر الحركة، لما كانت هناك إبداعات وتحوّلات وتجديد، ذلك أنّ التاريخ في حركته يمقت الجمود وينأى عن التقوقع في الماضي ويرفض منظومة السكون القاتل الذي يمجّد الثبات ويمقت الحركة، الشيء الذي همّشهم وتركهم خارج دائرة التاريخ ما يزيد عن أربعة قرون.

وككلّ عالم يسعى لبناء نظريته، سارع إقبال لوضع لبنة البناء الأولى التي راهن عليها لتحقيق قيمة توجهه المعرفي وهي الخوض في ركن الاجتهاد. يقول إقبال: "إذن فما أساس الحركة في بناء الإسلام؟ إنّ هذا الأساس أو المبدأ هو الاجتهاد."[٢٠] فهل سيتمكّن التاريخ من استعادة الحركة، ومنها إلى التطور والتقدّم، بالاعتماد على الاجتهاد كمنطلق لاستعادة حركة التاريخ وتفعيل آلياته الفاعلة بين جوهر الثبات وعرض التغيّر كسند معرفي يساعد من ينشد استعادة الماضي التليد، والمضي قُدماً على خطى الزحف الحضاري الغربي حتّى تتحقّق معادلة حضور المسلمين الفاعل في المنظومة الحضارية المعاصرة.

اعتمد إقبال على الاجتهاد لكونه يمثّل حركة التجديد الأساسية في العملية الفكرية الإبداعية التي تفضي إلى إعادة صياغة القواعد العملية في الحقل الديني، بما تحويه منظومته من تفسير وفقه وأصوله. إنّ الاجتهاد هو أولى خطوات التأصيل للمعرفة الصحيحة وللفهم السليم، كونه فهم سديد وأداة استنباط لأحكام جديدة تعيد للفكر نظارته وللنفوس الأمل في بناء المستقبل، فكيف استطاع إقبال تكييف توجّهه

[19] Sharif M. M. "About Iqbal and His Thought". Lahore- Institute of Islamic Culture, 2nd Ed.1976, P.73.

[٢٠] إقبال، **تجديد التفكير الديني في الإسلام**، مرجع سابق، ص١٧٥.

الإصلاحي القائم على الحركة في مسارها التاريخي المنساب مع تعاقب الزمن وتطبيق آلياته على المقاصد الاجتهادية عن طريق إيجاد التناغم بين الثبات والتطوّر؟

لقد اقتنع إقبال بكون حركة الفكر هي عبارة عن ذلك التطوّر الذي ينتج عن التناقضات السائدة في كنه الفكر ذاته بما تمليه الأوضاع المؤثرة، وبالتفاعل الإيجابي يكتسب تطوّراً ذاتياً يدفع به إلى معانقة المأمول بآليات تعبّر عن حركة تصاعدية يروم بها الفكر تجاوز السلب السّائد وتجاوزه إلى الإيجاب البناء الذي تختزله الأهداف التي تثبتها جدلية التكامل والتعارض وفق القانون السائد الذي يحكم تطوّر الأفكار والإبداع المعرفي الذي اجتهد في تحقيقه إقبال.[٢١] إنّ هذا التنظير الذي سعى إقبال إلى تحقيقه يستجيب لروح الفهم الفلسفي القائل بأنّ الحركة هي في ذاتها سير تدريجي تحكمه آليات الفعل التاريخي وإنتاج العقل وإمكانات الشيء وقدراته على التأقلم مع الأوضاع الجديدة.

ويحرص إقبال، كغيره من فلاسفة عصره، على أن تكون الحركة منبجسة من الإنجاز الفكري العقلي، خارجة عن دائرة الثبات والعدم لتكون أكثر استجابة لحركة الظاهر المتجدّد ونابعة من روحه، وبذلك تكون علّة الحركة متأصّلة في جوهر الثبات لتشكّل جدلية متناغمة بين القوّة والفعل، حتى يتمّ إنجاز مهمّة الحركة في شكلها المركّب، وبكلّ يسر وتكامل في اتجاه متصاعد لا يعرف التوقّف ولا السكون، وتلك هي حقيقة الحركة في الإسلام وتماهيها في جدلية الثابت والمتغير عند إقبال، وفي عمق الثقافة الإسلامية وروح الإبداع اللامتناهي، التي أوردها إقبال في ثنايا تعبيره عن المفاهيم القرآنية ذات العلاقة بالحركة والتغيير، فيقول: "والقرآن يبصرنا بحقيقة التغيير العظيمة التي لا تتسنّى لنا بغير تقديرها والسيطرة عليها حضارة قوية الدعائم. ولقد أخفقت ثقافات آسيا بل ثقافات العالم القديم كلّه لأنّها تناولت الحقيقة بالنظر العقلي ثمّ اتجهت منه إلى العالم الخارجي، فأمدّها هذا المسلك بالتفكير النظري المجرّد من القوّة،

[21] Razzaqi Shahid Hussain (ed.), *Discourses of Iqbal*, Téhéran, Iqbal Academy Pakistan, 2008

وليس من الممكن أن تقام على النظر العقلي المجرد وحدة حضارة يكتب لها البقاء..."[٢٢] كما يشير إليها لماماً المفكّر الدارس لإقبال الأستاذ سليمان بشير، واجداً أنّ قدرة هذا الشاعر الفيلسوف تتجلّى في تحريك السّواكن وتحفيز الهمم ودفعها إلى الإبداع المعرفي،[٢٣] انطلاقاً من أنّ الحضارة الإسلامية -حتى وإن اعتراها حين من الدهر، انكفأت فيه على نفسها وانطوت على اجترار تراثها، وفقدت الحركة وانساقت إلى الخمول والتبعية- فإنّها بقيت تحمل في جوهرها توجّهاتها الإسلامية الثابتة. وبقدر ما يميل إقبال إلى الإفصاح عن هذا المنحى العقلاني إلّا أنّه يبقى متوجّساً من تجربة المعتزلة الذين اغتالوا العقل بالعقل في قضايا الكلام والرؤية؛ أي مسألتي خلق القرآن ورؤية الله، زمن مواجهتهم للفكر السني الحنبلي وزمن المواجهة بين السياسي والديني.[٢٤]

ثالثاً: ملامح النموذج المعرفي وتشكّل قيمه

لم يكتف إقبال بالنقد الفكري والحضاري وتفكيك المكوّنات المعرفية السّائدة لدفع العقول الإسلامية إلى الإقبال عليها، والنهل من ينابيعها، مع الحرص على الحفاظ على الثوابت والإبقاء على التماهي بين التشكيل المعرفي الإسلامي والغربي. بل انبرى إلى فكّ أسر المسلمين من الغزو المادي الذي استمال المسلمين وأغراهم، فعطّل لديهم يقظة الروح والأمن العاطفي، ليرديهم عينات حيّة لمختبرات المعرفة الحضارية الغربية. لقد أصبح من الضروري على إقبال، إعادة العلاقة الحميمية بين الروح والمادة بعيداً عن الصراع الإقصائي الذي تشنّه الفلسفة على الدين.

كما أنّ إقبال لم يستسغ سيطرة فكرة التغني بالأمجاد وتعطيل حركة التاريخ الحاضرة، وشلّ قنوات الاستشراف المستقبلي؛ إذ يقول: "ولهذا فإنّ تبجيل التاريخ

[٢٢] إقبال، **تجديد التفكير الديني في الإسلام**، مرجع سابق، ص٢٢.

[23] Diagne Souleymane Bachir, *Bergson postcolonial. L'élan vital dans la pensée de Léopold Sédar Senghor et de Mohamed Iqbal*, Paris, CNRS, coll. « Les conférences au Collège de France de la chaire d'histoire contemporaine du monde arabe », 2011.

[٢٤] إقبال، **تجديد التفكير الديني في الإسلام**، مرجع سابق، ص١٧٧.

الماضي تبجيلاً زائفاً وبعثة المصطنع ليس علاجاً لانحلال شعب من الشعوب، وقد أحسن كاتب من المحدثين تصوير ذلك فقال: إنّ حكم التاريخ هو أن الأفكار البالية لم تقم لها قائمة أبداً بين قوم بليت على أيديهم."[٢٥] وإذا كان التاريخ حركة، والتقدّم مبادرة ومسؤولية وقدرة فائقة على الإرادة البناءة في تحقيق رهان الارتقاء بالسّائد والشجاعة في المواجهة باكتساب القوّة الفعّالة لدى الفرد أو الأفراد، فإنّ إقبال يؤمن أنّ العملية النقدية تجسّم حركة التاريخ بوصفها من أبرز العوامل المؤثرة في الإنتاج الفكري والمعرفي الذي يصنعه الرجال في موكب التاريخ، يقول إقبال: "ومثل هؤلاء الأفراد هم وحدهم الذين تتجلّى فيهم أعماق الحياة، فهم يجهرون بمقاييس جديدة نبدأ نرى في ضوئها أنّ بيئتنا ليست واجبة الحرمة في كلّ شيء بل تفتقر إلى التعديل، والميل إلى المبالغة في التنظيم بإظهار احترام زائف للماضي، الأمر الذي نلاحظه عند فقهاء المسلمين في القرن الثالث عشر وما تلاه، كان مخالفاً لروح الإسلام... ."[٢٦] ويذهب إقبال في هذا الاتجاه إلى التنويه بالتجربة التركية والإعلاء من عقلانيتها، بل وطالب بالنسج على منوالها،[٢٧] إذا سلّمنا بواقعية النهضة الإسلامية؛ إذ يقول: "فلا بدّ لنا من أن نفعل يوماً ما فعله الترك. فنعيد النظر في تراثنا العقلي، فإذا لم نستطع أن نضيف جديداً إلى التفكير الإسلامي العام فقد نوفق، عن طريق النقد المحافظ السديد، في كبح جماح حركة التحلّل من الدين التي تنتشر بسرعة في العالم الإسلامي."[٢٨] ويضيف إقبال في قضية البناء الفلسفي الحضاري للفكر الإسلامي الجديد الذي يتخذ من التغيير مركزاً متقدماً في إعادة صياغة منظومته؛ إذ يرى أنّه عليه الانطلاق من إدراك الحقيقة بالتجارب الإنسانية الواقعية والدينية والتاريخية. ولعلّ إقبال كان مقتنعاً بما قدّمه العلماء الأتراك من تدليل على مدى صلاح نظام الخلافة من عدمه، فهو وإن لم يُخفِ إعجابه، فإنّه نوّه ودافع عن جرأتهم في التجديد؛ إذ يقول: "هل ينبغي أن تسند الخلافة إلى شخص مفرد؟ أجاب الاجتهاد التركي: إنّ روح الإسلام تجيز إسناد الخلافة أو الإمامة إلى جماعة من الناس أو إلى مجلس منتخب، أما أنا فأعتقد أن الرأي التركي رأي سليم

[٢٥] المرجع السابق، ص١٧٩.

[٢٦] المرجع السابق، ص١٧٩.

[٢٧] لقي هذا التوجه الذي سلكه إقبال في الإعلاء من شأن الإنجاز التركي نقداً شديداً من قبل كثير من الدارسين.

[٢٨] إقبال، **تجديد التفكير الديني في الإسلام**، مرجع سابق، ص١٨١.

جداً، ونظام الحكم الجمهوري يتفق مع روح الإسلام، وأصبح كذلك ضرورياً، نظراً للقوى الجديدة التي انطلقت من عقالها في العالم الإسلامي."[٢٩]

كما عدّ عملهم في تقويم التجربة الفكرية السياسية لا يختلف عن رأي المعتزلة سابقاً، الذي يعدّه من قبيل الجرأة، فيقول: "الترك اتبعوا رأي المعتزلة الذين يذهبون إلى أن تنصيب الإمام أمر تدعو إليه ضرورة الاجتماع لا غير، ألم يُسقط القاضي أبو بكر الباقلاني شرط القرشية في الخلافة نتيجة لحقائق التجارب في الحياة؛ أي لما أدرك قريشاً من الاضمحلال السياسي وما نشأ عنه من عجزها عن حكم العالم الإسلامي، وأدلى ابن خلدون بما يقارب هذه الحجة مع أنه كان يعتقد في اشتراط القرشية في الخليفة."[٣٠] ومثلما أشرنا سابقاً فإنّ هذه الآراء والمواقف التي ساقها إقبال في تحليله لقضايا الفكر السياسي قد تعرضت لانتقادات عديد العلماء منهم محمد البهي.[٣١]

رابعاً: بناء المعرفة

١. المصادر والخصائص:

في هذه المنظومة الفكرية التي تتناغم فيها عناصر: الواقع والدين والتاريخ، بدأت ملامحها ترتسم؛ إذ تجلّت مقوّمات نظرية المعرفة في الفكر الفلسفي الإيماني لدى محمد إقبال، وتبلورت قواعد بنائها لتشكّل قاعدة نموذجية يسهل من خلالها رسم طريق الإصلاح الحضاري وبعث خطاب معرفي جديد قادر على النهوض بالفكر الإصلاحي الذي سعت له النخب المفكرة في المشرق والمغرب منذ فترات طويلة؛ إذ عرفت فيها مسيرة الإصلاح محطّات من النجاح والسقوط في غياب فكر نقدي مؤهّل لإدارة عمليتي النقد والبناء في التعامل مع الحضارة الغربية. لقد بنى إقبال منهجه على جوانب مهمّة من التحصيل المعرفي، فقد سعى إلى بناء منهجه على:

---

[٢٩] المرجع السابق، ص١٨١.

[٣٠] المرجع السابق، ص١٨٢.

[٣١] البهي، محمد. **الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي**، بيروت: دار الفكر، ١٩٧٣م، ص٤٨٥.

- النقد: بعد تفكيك المنظومات الفكرية السابقة الإسلامية وغير الإسلامية.
- إعادة البناء: اختيار عناصر التكيّف الحضاري والتناغم الفكري في نسق تصاعدي تتناغم فيه القضايا المعرفية ولا تتعارض مع روح الفكر الإسلامي.
- صياغة ما يتناسب والفكر الإسلامي لهداية الحيارى من النخب المسلمة التي أبهرها الغرب بنظارة حضارته، وقوّة إنتاجه المادي، وطغيان صوته الفلسفي الناكر للإيمان.[٣٢] على غرار التهافت الوجودي والرأسمالي والشيوعي على النخب المسلمة التي عاضدها المدّ الاستعماري والغزو الفكري للفرق الهدامة. لقد اكتشف إقبال أنّ الغرب، بداية من التراث اليوناني وحتى مطلع القرن العشرين، اعتمد في صياغة معارفه على المساحة اللاإيمانية، وركّز عملياته الإدراكية على العقل وحده دون الاعتبار بمدى قصوره في معالجة القضايا الروحية، مستنصراً بالنموذج الوجودي المادي والفنومنولوجيا الإدراكية.[٣٣] ولدرء هذه المفاسد توخّى إقبال في بناء نظريته ثلاثة أبعاد معرفية رصدها في تأليفه المتنوّع، وهي:
- الشّعر: فالإلهام الشعري، بوصفه تجربة ذاتية، يؤدّي حتماً إلى إدراك الأنساق الرمزية التي صيغت بها نظريات الفهم والاستيعاب الفكري لمختلف القضايا المعرفية.[٣٤]
- الدِّين: يمكّن من توسيع دائرة الاستيعاب المعرفي وتمكين الإنسان من تجاوز حدود العقل؛ ليتمكّن من معانقة الحقيقة المطلقة كما بشّرت بها المعرفة القرآنية الربانية.[٣٥]
- الفلسفة: بوصفها مجالاً فسيحاً للتساؤل وإثارة الرغبة في المعرفة لدى المتلقّي، فهي فضاء للبحث الحرّ بما فيه من هدم وبناء وقبول ورفض قد تصل أحياناً إلى

---

[32] Iqbal. *essays and studies*, New Delhi: edited by Asloob Ahmad Ansari, Ghalib Academy, 1978.

[٣٣] الفلسفة الظاهراتية التي برز فيها مرلو بونتي.

[34] Mazheruddin Siddiqi. "Concept of Muslim culture in Iqbal" [Texte imprimé], [by] Islamabad: Islamic Research Insitute , 1970.

[35] Calderon, José Esteban. *La Reconstruccion Del Pensamiento Religioso en el Islam*, ISBN 969 416 013 8.

الاقتناع بعدم قدرة العقل على إدراك الحقائق المطلقة للأشياء، ناهيك عن الأبعاد المعرفية الميتافيزيقية... .[٣٦]

هذه الأبعاد الثلاثة ستساهم في تناغمها في إعادة صياغة متطلبات اليقظة على أسس يتناغم فيها فهم الفكر الغربي وتمحيصه، بالتوازي مع فلسفة النقد المعرفي للفكر الإسلامي، يقول إقبال: "ولهذا لا بدّ من أن يصاحب يقظة الإسلام تمحيص بروح مستقلة لنتائج الفكر الأوربي، وكشف عن المدى الذي تستطيع به النتائج التي وصلت إليها أوروبا أن تعيننا به في إعادة النظر في التفكير الديني في الإسلام، وعلى بنائه من جديد إذا لزم الأمر."[٣٧]

أمّا المعرفة الصوفية، وإذا لم نعدّها مكوّنا عضوياً لنظرية المعرفة عند إقبال؛ فإنّها ساهمت بفاعلية في بلورة المنظومة الفكرية الإسلامية، حتى وإن كانت جذورها غير إسلامية، وقد استحوذت على حيّز مهم من المساحة الروحية الدينية، واستطاعت أن تشكّل في أحيان كثيرة نماذج الثورة والانقلاب على بعض المكوّنات الفكرية الإسلامية على غرار الفقه الذي يعتمده إقبال، فيقول: "وخير مثال على هذا سفيان الثوري..."[٣٨]

ويسعى إقبال في تأصيل ظاهرة التصوف بوصفها تجربة روحية لا غنى للإنسان عنها، فهو يرى أن هناك ما هو أسمى من العقل يمكن أن يصل إليه الإنسان، وهو ذلك البُعد الذي يتصل بالمعنويات وبالتجربة الروحية والشعورية عند الإنسان، فهو ينتقد الفلسفة الغربية التي أقصت التصوف والمعرفة الروحية، وبهذه النزعة الروحية خرج إقبال عن مسار أساتذته ومسار المدرسة التي تربّى فيها، ليتميز عن الفلاسفة الأوروبيين، ويظهر استقلاله عنهم، ثمّ انبرى بهذه النزعة "محاولاً التأثير في الفلسفات الأوروبية التي فقدت توازنها في نظره حين تخلت عن النزعة الروحية، وأظهرت موقفاً سلبياً منها سعياً نحو تحقيق انتصار نهائي وحاسم للعقل. وبخلاف هذا الموقف

[٣٦] جبار، أمين. "نقد تجديد التفكير الديني"، **مجلة كراسات الإسلام**، ٢٠١٤م، موقع (أكاديميا) الإلكتروني، ٢٠١٥م.

[٣٧] إقبال، **تجديد التفكير الديني في الإسلام**، مرجع سابق، ص١٤.

[٣٨] المرجع السابق، ص١٧٨.

فإن إقبال يرى أن هناك ما هو أسمى من العقل يمكن أن يصل إليه الإنسان، وهو ذلك البعد الذي يتصل بالمعنويات وبالتجربة الروحية والشعورية عند الإنسان."[٣٩]

وبالتناغم بين كلّ هذه المكوّنات تتشكّل عناصر النظرية المعرفية لمحمد إقبال، والتي ستتفاعل فيها مختلف أبعاد المنظومة الإصلاحية الإيمانية التي ستعيد للإنسان توازنه السيكولوجي وتفكّ عقدة المادية الطاغية التي استهانت النفوس وبسطت نفوذها على الثقافة العصرية. ويتمسّك إقبال بالتوجّه القرآني في تحقيق هذه المعادلة فيقول: "فالحقيقة القصوى في نظر القرآن روحية، ووجودها يتحقق في نشاطها الدنيوي."[٤٠] فهل الإيمان الروحي يتعارض مع الرؤى الفلسفية أم يسعى إلى التكامل معها ويشاركها في نسج المنظومة الثقافية المتكاملة؟ يحاول إقبال إيجاد أرضية مثالية يتّحد فيها الدين والفلسفة ولا تخرج عمّا ينظّر له (أوجست كونت) من أنّ أطوار المعرفة ثلاثة لا تخرج عن: الدين والفلسفة والعلم.[٤١] عندئذ ندرك محاولة إقبال المواءمة بينها لتلائم وجهة النظر الإسلامية.

لقد صاغ محمد إقبال نظريته المعرفية لتكون حافزاً للمجدّدين من المسلمين في سلّم الرقي الحضاري حتى يواجهوا العصر بسلاحه، وفي زمن اختلفت فيه الرؤى الإصلاحية بين مؤيّد لنقد تراث السلف وتطويره، ومقدّس له لا يسمح بالتعامل مع نصّه إلّا فهماً وتوضيحاً. وكان إقبال من المنادين بالتطوير الفكري، فما الحاجة إلى نظرية معرفية لو لم يقع استعمالها والاستفادة منها؟ وإذا كان كلّ ما في الوجود يعشق التغيير ويكره ما ينافي حياة التطوّر والتقدّم إلى الأمام، فإنّ الأولى بالعلم أن يكون حاملاً لواء هذا التوجّه الحيوي الذي ينبذ الانغلاق والتقوقع في تقديس الماضي. ففي باب الفقه الذي يمثّل أوسع حقل للاجتهاد العقلي، يسأل إقبال أصحاب العقول الحائرة: "هل ادّعى أصحاب مذاهبنا الفقهية أنفسهم أنّ تفسيرهم للأمور واستنباطهم للأحكام هو آخر كلمة تقال فيها؟"[٤٢] وينتهي الفيلسوف إقبال في صياغة جدليته

---

[٣٩] الميلاد، زكي. "محمد إقبال وتجديد الفكر الديني في الإسلام"، **مجلة البديل الإلكترونية**، عدد نوفمبر ٢٠١٣م.

[٤٠] إقبال، **تجديد التفكير الديني في الإسلام**، مرجع سابق، ص١٨٣.

[٤١] المرجع السابق، ص١٩٠.

[٤٢] المرجع السابق، ص١٩٩.

الاستدلالية إلى التأكيد على تبنّي الرّأي الذي يحثّ على التجديد والارتقاء بالمعرفة وفق تغيرات المتطلّبات الحضارية ومنطق القبول والرفض المعرفي السّائد في الأوساط العلمية للعصر، فيقول: "والرأي عندي هو أن ما ينادي به الجيل الحاضر من أحرار الفكر في الإسلام من تفسير أصول المبادئ التشريعية تفسيراً جديداً على ضوء تجاربهم، وعلى هدي ما تقلّب على حياة العصر من أحوال متغايرة، هو رأي له ما يسوّغه كلّ التسويغ... ."[٤٣] وعلى هذه الأسس مضى إقبال في تحرير العقل من عقال الخوف من المغامرة اللامحسوبة ديناً ودنيا.

٢. في نقد مصادر المعرفة:

هل يمكن اعتبار عزوف المتلقي المسلم عن مصادر الفكر الإسلامي، والنهل من مراجع علمائه، موطن إغراء ونقطة قوة في جذب الحضارة الغربية للمسلمين الشبان، أم يعود إلى ترهّل مردود الحضارة الإسلامية وعدم قدرتها على التجديد؟ وهل سيكون في هذا إعلان صريح عن وأد الغيبيات والروحانيات في الفكر البشري أمام الهيمنة المطلقة للعقلانية المادية؟ أو بالأحرى القطيعة الأبدية بين الإسلام والغرب؟

يجيب إقبال باختصار: "....وصدّقوني إنّ أوروبا اليوم هي أكبر عائق في سبيل الرقي الأخلاقي للإنسان... ."[٤٤] وكان على إقبال رفع التحدّي؛ إذ يقول ضمن ما جاء في محاضراته التي ألقاها في مدراس وحيدرأباد ساعياً إلى إعادة بناء الفكر الإسلامي دينياً وفلسفياً: "أحاول بناء الفلسفة الدينية الإسلامية بناء جديداً، آخذاً بعين الاعتبار المأثور من فلسفة الإسلام إلى جانب ما جرى على المعرفة الإنسانية من تطوّر في نواحيها المختلفة، واللحظة الراهنة مناسبة كلّ المناسبة لعمل كهذا... ."[٤٥]

لقد تحقّق إقبال من أنّ الحضارة الأوروبية والغربية بصفة عامة قد أعلنت إفلاسها، بقتل العاطفة لدى الإنسان، وأنّ الحضارة الإسلامية ستتبعها في الأفول إذا تمادت في

[٤٣] المرجع السابق، ص١٩٩.
[٤٤] المرجع السابق، ص٢١٣.
[٤٥] المرجع السابق، ص٤.

تقديس تاريخها بكلّ مكوّناته، والعزوف عن فهم حضارة الآخر. فوراء هذا النقد للفكر الإسلامي الذي يسعى إلى إعادة التاريخ، توجيه نحو الواقع المعيش، فيه غرب متفوّق وعالم إسلامي متراجع ومتقوقع داخل منظومة الاغتراب عن الحاضر، يقول إقبال: "ولهذا فإنّ تبجيل التاريخ الماضي تبجيلاً زائفاً وبعثه المصطنع ليس علاجاً لانحلال شعب من الشعوب... ."[٤٦] وهكذا اكتسبت محاولات إقبال تمشياً معرفياً خاصّاً، أنقص من قيمته بعضهم،[٤٧] ورفع منه بعضهم، وفيه يقول المفكّر عبد القادر محمود: "إذا كانت مدرسة جمال الدين الأفغاني قد أسهمت في خلق ثورة فكرية تجديدية في التفكير الإسلامي، وحملت لواء الثورة ضد الحركات الاستعمارية في المشرق القريب والبعيد، فإن مدرسة إقبال هي المدرسة الأولى التي حملت لواء التجديدية في الفكر الإسلامي، وبخاصة ضد دعاوى الوضعية الماركسية، وفي معاقلها في الغرب قبل الرق القريب والبعيد، وباللغة الأوروبية التي يكتب بها إقبال أهم تراثه."[٤٨]

٣. من تجليات بنية النظام المعرفي الجديد:

إنّ الرجل الذي تكوّنت لديه نظرية معرفية متكاملة استناداً إلى قراءات نقدية، تفكيكية وبنائية، قادر على تقديم نظرة استشرافية وبعد معرفي إستراتيجي، يؤهله إلى بناء منظومة تفكير متجددة للفكر الإسلامي، أساسه ربط الإسلام بالفكر الغربي في صيغ تآلفية تتلاءم فيها مقاصد حفظ الهوية، وتلتقي بامتلاك آليات التقدّم الغربي، بعيداً عن الانبهار بالنموذج الغربي الذي عطّل الفكر الإصلاحي لزمن طويل. لقد أدرك إقبال أنّ المنظومة الفكرية الإسلامية لن تؤول إلى الزوال، وأنّها تحمل أسس البقاء والعودة إلى الحياة من جديد، على الرغم مما طرأ عليها من محن يلخّصها إقبال في الآتي:

- اضطهاد العقل في عصور متقدمة من بناء الفكر الإسلامي.

---

[٤٦] المرجع السابق، ص١٧٩.

[٤٧] فخري، ماجد. **تاريخ الفلسفة**، ترجمة: كمال اليازجي، بيروت: الدار المتحدة للنشر، ١٩٧٤م، ص٤٧٧.

[٤٨] محمود، عبد القادر. **الفكر الإسلامي والفلسفات المعارضة**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م، ص٣٧٢.

- تطوّر النـــزعات الصوفية المغالية.
- سقوط بغداد.
- نهاية غرناطة وأفول الحضارة الإسلامية في ربوع الأندلس.

هذه المحطّات الأربع التي شكّلت فضاءات الانقطاع، استغلّها إقبـــال في إعـــادة صياغة منظومة الفكر الإسلامي، وعدّها نكسات وعثرات عابرة، من شأنها أن تشحذ الهمم، وتمكّن الأمّة من استعادة سالف نشاطها في التقدّم والبناء المعرفي. وهنا يكمـــن برنامج إقبال وخطّته الاستراتيجية في إعادة الهيبـــة للـــدّين الإســـلامي وللحضـــارة الإسلامية، تلك الخطّة المبنية على التكامل بين الروحي والمادي، والمصالحة بين تعـــاليم الإسلام ومقتضيات التجديد، ولو اعتمدنا فيها على المعارف الغربية الغربي وتجاوزنـــا النصوص التقليدية وأخضعناها إلى النقد والاستقراء، يقول إقبال: "ولم يبق أمامنا مـــن سبيل سوى أن نتناول المعرفة العصرية بنـــزعة من الإجلال وفي روح من الاســـتقلال والبعد عن الهوى، وأن نقدّر تعاليم الإسلام في ضوء هذه المعرفة، ولو أدّى بنا ذلك إلى مخالفة المتقدّمين وهذا الذي أعتزم فعله... ."[٤٩] بهذه العزيمة وحدها تحـــدّى إقبـــال في شعره ونثره، وفي فلسفته ومنطقه، وفي حكمته ونباهته، الموروثَ الثقـــافي الاســـلامي والقدسية الفكرية الغربية، فانتقد وفسّر ورجّح وخرج بأفضل الملاحظـــات، لتكـــون دستوراً يرتقي به المسلمون في مستقبل بنائهم الفكري والمعرفي.[٥٠]

خامساً: النهوض الحضاري للأمّة

الارتقاء ضرورة حضارية سعى إلى تأصيلها الإسلام، وهي توق إنساني لا يهـــدأ، وما سعي محمد إقبال لتحقيق هذا الهدف للأمة الإسلامية إلّا دليلٌ على نبـــل الرســـالة الإصلاحية التي عاهد الله على إنجازها، لتحقيق نهضة الأمة الإسلامية وبنـــاء تقـــدّمها ورقيّها. ويجب أن نقرّ بأن إقبال نهل كما يريد من الحضارتين: الإســـلامية والغربيـــة، فتميّز في إنتاجه وفهمه على غيره من أعلام ورواد حركات الإصلاح في العالم العـــربي

[٤٩] إقبال، **تجديد التفكير الديني في الإسلام**، مرجع سابق، ص١١١.

[50] Razzaqi Shahid Hussain (ed.), *Discourses of Iqbal*, Téhéran, Iqbal Academy Pakistan, 2008.

والإسلامي. والحقيقة أنّ إقبال كانت له ملكة نقدية ومنهج تدليلي قلّما نجده، فهو يمتلك القدرة على التفكيك وإعادة البناء لأجل بلوغ الحدّ الأقصى من متطلّبات الكمال في منهجية إحكام البناء، فهو جامع في طريقة نقده للجوانب الدينية والفلسفية والتاريخية، وهو من استدلّ على روح الحركة التي تقود التاريخ وتوجّهه نحو سنن النجاح والفلاح.

لقد واءم بين ضرورة الاقتداء بالنصّ المقدّس والتجربة التاريخية الدنياوية التي استمدّ منها الوجود الإنساني قيمه ومعانيه، فعانق الإبداع الفكري في أبهى صوره، وترك لخلفه دستوراً فكرياً، إذا نهلوا منه وأدركوا كنهه وأبعاده لكفاهم مؤونة عناء البحث عن طريق الهداية، في زمن تكالبت فيه النزعات الهدّامة على الفكر الإسلامي. ولو أنّ الفكر الإسلامي المعاصر نزّل إقبال المنزلة المعرفية التي يستحقّها، لكان تراثه الفكري والفلسفي من أجلّ الملهمين لقادات الإصلاح الذين اعتنقوا مشارب فكرية مختلفة، وانصرفوا يبحثون عن السّداد خارج المنظومة المعرفية الإسلامية التي توازي بين الرّوحي والمادّي. ولا تنساق وراء أوهام الفعل العقلي الذي رفع لواءه الغرب والمدنية الحديثة، لا سيما بعدما أصاب الثقافة الإسلامية منذ أواخر الحرب العالمية الثانية، مروراً بالحرب الباردة بين القطبين الرأسمالي والشيوعي، وصولاً إلى العولمة والحداثة وما بعدها؛ إذ تورّط المجتمع الإسلامي وتاهت النخب في ثنايا الحلم الوهمي الذي حملته وسائل الإعلام حول حسنات العولمة، ليستفيقوا على وقع موجات جديدة من الحروب العنصرية ضدّ الإسلام والمسلمين، فهل من عودة إلى إقبال ومنهجه في حركة التجديد والإصلاح.

سادساً: التكامل المعرفي لدى إقبال

إنّ ما يتميّز به محمد إقبال عن غيره من المصلحين السّابقين يتجلّى في الآتي:

- تشبّعه بالثقافة العربية الإسلامية.
- إلمامه بمكوّنات الثقافة الغربية المعاصرة واستيعابه للمقولات الفلسفية الرائجة في ذلك العصر.

- امتلاكه لمنهجية التحليل والاستقراء والتعليل.
- وطنيته وحبّه لهويته الإسلامية ودفاعه عن الأمة.
- القدرة الفائقة في المقاربة بين الفكرين الإسلامي والغربي، والخروج بالنتائج الضرورية في بناء القواعد والأسس المعرفية الحديثة.
- المواءمة بين ثنائية الدين والعلم الحديث، أو الدين والفلسفة التي تبنّتها اتجاهات فكرية وإصلاحية أخرى، ولكنّها فشلت في الوصول بها إلى السياقات المعرفية التي تقنع العقل والعاطفة في الآن ذاته.
- اغتنام الفرصة السّانحة لتحقيق الإصلاح وتوفّر أرضيته في بعدين أكّد عليهما محمد إقبال، بوصفهما لحظات تاريخية فارقة، وهي: التجربة التركية بعد سقوط الخلافة العثمانية والثورة البروتستنتية في العصور الوسطى.[٥١]

هذه المكوّنات الذهنية والاستعداد الفكري لمحمد إقبال جعله ينجح في صياغة منظومة معرفية تصون للأمة قيمها، وتمكّنها من مجاراة أسس التقدّم والبناء الحضاري المعاصر. لقد جسّم إقبال التوق نحو الروحانيات دون أن يهمل العقل ومكانته كوسيلة للتحصيل والفهم والإدراك، وأعاد للتحصيل الثنائي دوره الفاعل والمتوازن، فآخى بين الاثنين، وخرج بنسيج معرفي جامع مانع، وكان فيه موفقاً بين التراث والحداثة، لتبرز للوجود مدرسة إصلاحية لها دلالاتها المعرفية والمنهجية وخصائصها الفكرية التي لا يصحّ نسبتها إلّا إلى إقبال.

وبالرغم من رجاحة توجّه هذه المدرسة الإصلاحية النموذجية، وما تبشّر به من توجّه معرفي، يمكّن النخب المسلمة اليوم من تجاوز الفجوة المعرفية والقطيعة الإبستمولوجية التي أوقعت الفكر الإسلامي في رداءة الأداء، وسطحية الفهم، وعدم القدرة على الاستجابة لتحدّيات الفكر الغربي، غير أنّ الفكر الاسلامي اليوم لم يعتمد هذه الحركة الإصلاحية، ولم يدرجها ضمن اهتماماته المعرفية، وبذلك بقي إقبال مهمّشاً داخل الجدليات المعرفية القائمة اليوم، وبذلك حصل هذا القصور الإدراكي لحقيقة المواجهة الحضارية بين الشرق والغرب، وانسدّت أفق التعاطي مع الموضوعية

[٥١] إقبال، **تجديد التفكير الديني في الإسلام**، مرجع سابق، ص١٨٨.

والاعتدال في إصدار الأحكام التي حكمت علينا بالتهميش وكبّلتنا بأتعس النعوت. فبغياب محاولة إقبال الرّائدة في تحريك السّواكن للفكر الإسلامي، وعدم اهتمام رواد الثقافة والنخب المفكرة عن فلسفة إقبال، وفهمه للمعادلة الصعبة بين الشرق والغرب، وبين الدين والفلسفة، وبين الروح والعقل، تعطّلت عمليات الإبداع الفكري والمعرفي. ولعلّ هذه الظاهرة تخفي وراءها منتهى العجز المعرفي الذي تعاني منه النخب المفكّرة اليوم في التعامل مع ما ينفع في التراث الفكري الإسلامي، الذي يتوق إلى العالمية، ليصنع عهداً جديداً للحضارة الإسلامية.

خاتمة:

لقد أظهر محمد إقبال في بناء مشروعه الحضاري أنّه على درجة عالية من الفهم والتعليل لقضايا العصر ومشاكل الأمة الإسلامية شرقاً وغرباً. فبحسّه الشاعري تلمّس نقاط التقصير الروحي، وبتأمّلاته الفلسفية أدرك عمق القطيعة الحضارية والمعرفية التي يعاني منها الشرق إزاء الغرب وحضارته المادية التي غالت في تأليه العقل وعصفت بوجدانيات الروح. انطلق إقبال نحو صياغة منظومة إنسانية إسلامية تتآلف فيها مكوّنات الإنسان الروحية والعقلية، وقد صاغ حلقاتها بفكر تشكّلت مفاهيمه من مصادر المعرفة الإسلامية والمقولات العقلية الغربية التي شاع صيتها في مطلع القرن العشرين. لقد وفّق إقبال في صياغة منظومة التكامل والتوافق التي تمكّن المسلم من مواكبة إملاءات عصره الحداثية، وفهم مقاصده التوافقية التي تجمع بين صدق التوجّه الروحي وعقلنة المفاهيم المادية التي لفّتها التخريجات الفلسفية.

وإذا كان إقبال قد لامس الطريق الصحيح الذي يمكّن المسلمين من العودة إلى الإبداع والتحرّر من التهميش التاريخي، فإنّه حرّر المسلم من قيود غلبة الغرب وجعله توّاقاً إلى مسابقة العصر، والأخذ بأسباب بناء الأمة من جديد، إلّا أنّ الفكر الإسلامي المعاصر نأى بنفسه عن تنظيرات إقبال في تجديد الفكر الديني، وإعادة صياغة المنظومة الحداثية التي غلبت عليها القطيعة المعرفية مع التراكمات التاريخية التي ساهمت في تشكّل الفكر الإسلامي منذ البعثة النبوية الشريفة إلى اليوم.